معاهدة عربية سودانية

بين والي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقلدروه ملك السودان في سنة ٣١ هجرية — ٦٥٢ ميلادية

للأستاذ المبـــارك إبراهيم

ما كاد العرب يدخلون أرض مصر فاتحين بقيادة السياسي العربي الداهية عمرو بن العاص ، وما كاد يستتب لهم الأمر فيها ويبسطون سلطانهم الديني عليها ، وما كاد يدين لهم المصريون بالطاعة عام ٢٠ للهجرة[١] على أكثر الروايات شيوعاً[٢] ... ما كاد يتم كل هـذا حتى اتجه نظر ابن العاص رئيس الحكومة العربية المصرية الجديدة في قسطاط مصر صوب القطر السوداني ابتغاء فتحه وضمه إلى خريطة الامبراطورية العربية الناشئة . وكان ذلك في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

(١) يوافق عام ٦٤٢ للميلاد .

(٢) في رواية أن الفتح العربي لمصر تم في ١٨ هجرية

فني عام ٢١ للهجرة أعد والي مصر عمرو بن العاص جيشاً مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل ، وسيره لفتح السودان تحت إمرة القائد العربي المشهود عبد الله بن سعد بن أبي سرح

على أن هـذا الجيش النازي لم يستطع التوغل في الأراضي السودانية ، وذلك لوعورة المسالك ، وللمقاومة الشديدة التي صادفها من جيش حكومة السودان التي كان مقرها يومئذ « دنقلة العجوز » أي القديمة

ويؤخذ من رواية ابن الأثير أن هـذه الغزوة العربية الأولى للقطر السوداني لم تكن موفقة كل التوفيق ، إذ لم يتعد الفتح العربي فيها بلاد الشلال التي تقع على التخوم . ثم إن عبد الله بن أبي سرح ، ما لبث أن انسحب بجيشه عائداً أدراجه إلى مصر بناء على أمر تلقاه من ابن العاص ، وكان ابن أبي سرح قد هادن أهل البلاد المفتوحة على دفع الجزية فكانوا يدفعونها

وقد روى ابن الأثير أن عدداً لا يستهان به من المحاربين العرب قد عادوا إلى مصر وهم مثخنون بالجراح فاقدو الأحداق لكثرة ما نالهم في أبصارهم من نبال الجيش السوداني . ولذلك كان المحاربون العرب يسمون المحاربين السودانيين رماة الحدق

* * *

ثم دارت عجلة التاريخ دورتها ، فعزل ابن العاص عن ولاية مصر في عهد خلافة عثمان رضي الله عنه ، فآلت ولاية مصر إلى قائدنا عبد الله بن أبي سرح ، وعبد الله هو من ذوي قرابة ابن عفان ، بل ويعد أخاً له في الرضاعة

وفي عام ٣١ الهجري الموافق ٦٥٢ للميلاد أعاد ابن أبي سرح الكرة وهو والي مصر ، فسار في طليعة جيشه معتزماً فتح السودان مهما كلفه الأمر . وكان السودانيون حينذاك قد نقضوا عهد الهدنة ، ورفضوا دفع الجزية وصاروا يشنون الغارة على سكان الحدود المصرية من العرب وأبناء الصعيد ، ويوسعونهم نهباً وتقتيلا متحينين فرصة انشغال رجال الحكومة العربية في المسائل الداخلية التي تلت مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأقصت ابن العاص عن مصر ، وغير ذلك من المشاكل العربية الخامنة

* * *

المشهورة : إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة في الشريعة أو للبرهان العقلي أو للحس والعيان وسائر اليقينيات .

ومن قواعدهم كذلك[١] :

« ليس كل ما صح سنده يكون متنه صحيحاً ولا كل ما لم يصح سنده يكون متنه غير صحيح » .

« من بلغه حديث وثبت عنده وجب عليه العمل به ومن خالف بعض الأحاديث لعدم ثبوتها عنده أو لعدم العلم بها فهو معذور .

« وقال حجة الإسلام الغزالي : إن من يعمل بالمتفق عليه كان مسلماً ناجياً » .

(المنصورة) محمود أبو ريه

(١) لك قواعد كثيرة غير هذه القواعد أوردناها في كتابنا . (الرسالة)

هذا ، وبعد حروب طاحنة[1] بين جنود ابن أبي سرح وجنود قلدرون ملك دنقلة ، تمكن القائد العربي من احتلال دنقلة — وكانت عاصمة السودان يومذاك — بعد أن حاصرها ورماها بالمنجنيق ، ولم يكن استعماله معروفاً عند الجيش السوداني

وقد قال أحد الشعراء العرب الذين اشتركوا في معركة دنقلة الفاصلة راجزاً :

لم تر عيني مثـــل يوم دنقله والخيل تعدو بالدروع مثقله !

* * *

أما المعاهدة العربية السودانية التي حررت دليلا على المهادنة والصلح بين الفريقين فإليك نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة « السودان » ولجميع أهل مملكته من حد أرض أسوان إلى حد أرض « علوة » : وهي على بعد ١٥ ميلا من الخرطوم

إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من أهل الذمة

إنكم معاشر النوبة « السـودان » آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ألا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أنتم على الشرائط التي بيننا وبينكم

على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وتدخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم ، وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ، ولا تستولوا عليه ولا تمروا منه ، ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه

وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم « دنقلة » ، ولا تمنعوا منه مصلياً ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه

وعليكم في كل سنة ثلثمائة رأس وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وأناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم ، تدفعون ذلك إلى والي أسوان

وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ، ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان

فإن أنتم أويتم عبداً لمسلم ، أو قتلتم مسلماً ، أو معاهداً ، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً ، فقد « برئت » منكم هذه الذمة والأمان ، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين

بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به ، والله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك[1]

* * *

هذا ، وتحفظ لنا كتب التاريخ الشيء الكثير من الحوادث والأخبار عن العهد الذي عقب توقيع هذه المعاهدة العربية السودانية

(أم درمان — سودان) المبارك إبراهيم

(١) كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة ٣١ هجرية

(١) ممن أصيبوا في عيونهم من رجالات العرب الشاهير يوم دنقلة حاوية بن خديج . وأبرهة ابن الصباح

ظهر حديثاً كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً